مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: **06** عدد: **02** السنة **2020** E-ISSN:2588-2325

الحرف التقليدية اللبنانية وإشكالية التنمية المستدامة الحرف الجزينية نموذجاً

The Lebanese traditional crafts and the problematic of sustainable development crafts of Jezzine exemplar

رامي ناصر *، الجامعة الإسلامية، لبنان. doctor@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/02/04 تاريخ القبول: 2020/06/25 تاريخ النشر: 2020/12/08

ملخص:

تشكل الحرف التقليدية واحدة من أبرز اهتمامات الدراسة الأنثروبولوجية، كونها جزء من الموروث الشعبي الذي يعبر عن ثقافة المجتمع. تنتشر هذه الحرف في مختلف المناطق اللبنانية، التي لاتزال الكثير من قراها وبلداتها تحافظ على عليها، فنجد لكل حرفة أدواتها، مواردها، طريقة صنعها، حرفيوها، انواعها، سلعها، علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية، لغتها، تاريخها، والظروف التي تؤثر وتتأثر بها". كما ارتبط أصل أسماء بعض العائلات اللبنانية بالحرفة التي مارستها كعائلة الفاخوري نسبة لصناعة الفخار، آل الحداد نسبة للحدادة العربية،.... إلخ. لكن، رغم أهمية الصناعات التقليدية بالنسبة الى فئة كبيرة من اللبنانيين، يعاني هذا القطاع إهمالاً كغيره من القطاعات، إذ يجابه الحرفيون التطور التكنولوجي والصناعي الذي يكتسح أسواقنا على كل الصعد. كذلك تنطوي مساءلة الظروف المؤطرة للصناعات الحرفية اليدوية التقليدية عامة ولحرفة الصناعات الجزينية خاصة، على إشكالية مركبة لها وجوه عدة، أبرزها اتجاهات تقنيع، وتسليع وتوظيف العنصر الحرفي، والتصورات البحثية التي تؤمن درسه والوعي به، بعيدًا عن طبيعة الترابط الجدلي المعقد بين الحرفة وبين سياقها الاجتماعي- الثقافي والتاريخي.

الكلمات المفتاحية: حرفة تقليدية، موروث شعبي، تراث، أنثروبولوجيا، ثقافة شعبية.

Abstract

Traditional crafts constitute one of the most important interests of anthropological study, as it is part of a popular heritage that expresses the culture of society. These crafts are spread in

* المؤلف المرسل

various Lebanese regions, which many of its villages still preserve. we find for each craft its tools, resources, method of manufacture, craftsmen, types, social and economic relations, language, history, and the conditions that affect and are affected by it. Also, the names of some Lebanese families was attached with their craft, like Al-Fakhouri family in relation to pottery, Al-Haddad family due to Arab blacksmithing, etc. ... Accountability of the framed conditions of traditional handcraft industries in general and of the Jezzine crafts in particular includes complex problematic with many faces, most notably trends of persuasion, commodification and employment of the artisan element, and research perceptions that secure its lesson and awareness of it, away from the complex dialectical link between the craft and its social, Cultural and historical context.

key words: Traditional craft, Folk heritage, Patrimoine, Anthropology, Folk culture.

مقدمة

تهدف الدراسة الأنثروبولوجية في حدودها العملية بالرجوع الى الحقل، الى الاطلاع على التفاصيل المعرفية كافة، والتوصل الى تحديد إطار نظري لواقع معرفي متسلسل ومترابط المواد. وتعتبر تنمية الحرف التقليدية ضمن البنية المجتمعية، إحدى القضايا المعرفية في مجتمعنا، انطلاقا من دراستها الميدانية الواقعية بأبعادها المختلفة من: اقتصادية، اجتماعية، ثقافية وسياسية وغيرها.

"تعتبر الحرف الشعبية التقليدية جزء من كل، فهي مرآة الموروث الشعبي، الذي يندرج في نسق ثقافي يترابط وظيفياً مع باقي الأنساق بعملية تساند بعضها البعض. إنها ظاهرة يضاف إليها ظاهرات تشكل حياة المجتمع في مرحلة معينة، فللحرفة أدواتها، مواردها، طريقة صنعها، حرفيوها، انواعها، سلعها، علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية، لغتها، تاريخها، والظروف التي تؤثر وتتأثر به[1]. وتتميز الحرف التقليدية بالمهارة اليدوية والخبرة الفنية المتوارثة التي تجعل الأشياء المحيطة نافعة وذات قيمة يستعملها الإنسان، تختلف في تصنيعها عن التصنيع بمفهومه الحديث.

[1] بزي علي، الصناعات الحرفية السياحية والتنمية المستدامة، ورقة بحثية.

فقد امتازت غالبية القرى والبلدات اللبنانية، بالمحافظة على بعض التقاليد القديمة وأبرزها الحرف التقليدية المصنوعة يدوياً، إذ تعود قيمتها المعنوية والمادية إلى المواد الأولية (الخام) التي تستعمل وتتميز فيها عادة كل منطقة عن غيرها.

كذلك " ارتبط أصل أسماء بعض العائلات اللبنانية بالحرفة أو المهنة التي مارستها كعائلة الفاخوري نسبة لصناعة الفخار، آل الصياد نسبة للصيد وصناعة شباك الصيد، آل الحداد نسبة للحدادة العربية، آل النجار نسبة للأشغال الخشبية والحفر على الخشب، آل الصابونجي نسبة لصناعة الصابون، آل مبيض نسبة للتبييض، آل الدبّاغ وآل الصبّاغ نسبة لدباغة وصباغة الجلود، هذا على سبيل المثال لا الحصر"[1]. فمن صور إلى صيدا إلى جبيل فطرابلس على طول الساحل اللبناني. ومن بنت جبيل إلى قعقعية الجسر، إلى كفريا فجزّين في جبل عامل (جنوب لبنان). ومن شحيم، إلى بعقلين إلى بشتفين، فدير كوشة في منطقة الشوف. ومن حاصبيا إلى راشيا الفخار وراشيا الوادي فعين قني في البقاع الغربي. ومن بعلبك إلى عرسال والفاكهة فالهرمل في البقاع الشمالي. ومن دوما إلى الكورة إلى القلمون، فعكار في شمال لبنان. تنتشر مدن وبلدات وقرى لا تزال تعبق برائحة الزمن الجميل، إنها تدعوك إلى زيارات تستكشف فيها أبرز صناعاتها اليدوية. فالصّناعات الحرفيّة اللبنانيّة, هي مزيج خاصّ من الحرف التّقليديّة المصنوعة يدويّاً، وابتكارات تقنية تواكب العصر. ونذكر منها على سبيل المثال, الصّواني النّحاسيّة المطروقة والمزيّنة بالزّخرفة العربيّة، والسّكاكين ذات القبضات المصنوعة من قرون الحيوانات، والعلب الخشبيّة والمفروشات المحفورة، والحلي، وألواح صابون زيت الزّيتون المطيّب بالغار، والفخّار والخزف، والمصنوعات النّحاسيّة، والأقمشة، والبياضات، والتّطريز, وأشغال الرّقش والمنمنمات, وغيرها من المنتجات. ولكن، رغم أهمية الصناعات التقليدية بالنسبة الى فئة كبيرة من اللبنانيين، يعاني هذا القطاع إهمالاً كغيره من القطاعات، إذ يجابه الحرفيون التطور التكنولوجي والصناعي الذي يكتسح أسواقنا على كل الصعد. نلاحظ أن غالبية هذه المساهمات الفريدة في المحافظة على بعض الصناعات التقليدية اليدوية، تكتسب طابعاً فردياً بامتياز، إذ يرفض أصحابها توريثها إلى أبنائهم لأنها مهنة "لا تُطعم خبزاً ولا توفر حياة كريمة لصاحبها". فهل هذه الصناعات تاريخية هي في طريق الاندثار ؟!

إشكالية الدراسة والمنهجية البحثية

تنطوي مساءلة الظروف المؤطرة للصناعات الحرفية اليدوية التقليدية عامة ولحرفة الصناعات الجزينية خاصة، على إشكالية مركبة لها وجوه عدة، أبرزها اتجاهات تقنيع، تسليع

[1] أبو سعد أحمد، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1997.

وتوظيف العنصر الحرفي، والتصورات البحثية التي تؤمن درسه والوعي به، بعيدًا عن طبيعة الترابط الجدلي المعقد بين الحرفة وبين سياقها الاجتماعي- الثقافي والتاريخي. تطرح الإجابة على هذه الإشكالية ثلاث أسئلة:

هل نملك الامكانات لرصد وتحليل وفهم واقع حرفنا التقليدية، في ظل حضارة عالمية طاغية تبغي السيطرة على مقدرات الشعوب وإلغاء هويتها الحضارية وإبداعها الذاتي؟

هل يؤسس التوقيع على اتفاقية حصر لوائح التراث الثقافي غير المادي (اليونيسكو 2003)، لرؤية علمية تسمح لنا بالمحافظة على الحرف وتطويرها في إطار خطة تنمية متكاملة ومستدامة؟

ماهي الإجراءات أو الخطوات التي تؤسس لهذه الخطة؟

اعتمدنا في مقاربتنا للإشكالية المطروحة، على الدراسة الميدانية، التي تعتبر من أسس البحث الانتروبولوجي مستخدمين لذلك:

أ. المسح الشامل لتوزع الحرف على المناطق اللبنانية

ب. المقابلة كتقنية اساسية.

ج. المخبرون أو المعرفون الذين يملكون معطيات مهمة وخاصة مع كبار السن من الحرفيين، وهم الكنوز البشرية الحية.

د. التصوير الفوتوغرافي.

هـ. الملاحظة والملاحظة بالمشاركة.

و. البيانات الإحصائية.

1. الحرف التقليدية ومفهوم الثقافة

أن مفهوم الثقافة واسع جداً وهو من أكثر المفاهيم التي عالجتها علوم متنوعة، ويمكن الإطلاع عليها من أي معجم والأبحاث المتعددة ذات الصلة. فالثقافة تحدد الإنتماء ببعده التاريخي والجغرافي والسياسي والاجتماعي، وهي التي تعطي للهوية بعدها ومعناها، وهذا ما يضعنا على منصة وحالة تواصل بين الحاضر والماضي.[1]

ويبرز أهمية التنوع الثقافي الذي يشكل مصدر غنى للسياحة الثقافية لأنه يقدم معطيات تثري النتاج وعلى مختلف الحقول ومنها الحرف التقليدية السياحية. فمن خلال مقاربتنا لواقع الحرف التقليدية على مختلف المستويات، لاحظنا أننا أمام نسق ثقافي إجتماعي ينطوي في منظومة متكاملة، تشمل كلاً معقدا.

[1] UNESCO (2004), L'UNESCO et la question de la diversité culturelle Bilan et stratégies, 1946-2004, Paris, UNESCO, septembre 2004, p 25

مقاربتنا للحرف تم تحديدها ضمن أبعاد مختلفة:

أ. البعد القيمي: تعتبر الحرف كمهنة ضمن الموروث الثقافي

ب. البعد المعرفي: وهو نوع من الجهود الميدانية والعلمية، مردها لاعتبارات متعددة منها:

- الإهمال اللاحق بمثل هذه الدراسات.
- للمحافظة على التراث.

ج. البعد الإقتصادي: الحرف هي جزء لا يتجزأ من الصناعة والبيئة والحالة التاريخية والسياسية والأمنية. وندرسها ضمن الواقع الإقتصادي والاجتماعي والتاريخي والحضاري.

د. البعد الثقافي: نجد مظهراً وظيفياً ناتج عن تكامل بين معطيات متعددة. فهي امتداداً وترابطاً ضمن سياق تاريخي لما هو متوارث لدينا من فنون.

هـ. البعد النفسي: الفنون والحرف اليدوية بوصفها عملاً ماهراً يدوياً بالإضافة إلى العملية المتكاملة على المستوى النفسي والجسدي.

و. البعد الرمزي: كل ما نجده من نتاج حرفي يمثل رمزاً يجب التركيز عليه بابرازه وتحليله. فالحرف الشعبية السياحية المتنوعة ترتبط بتاريخ المجتمع في أشكالها وتعبيراتها، وتستمد في أغلب الأحيان من رمزية المعتقدات أو من العناصر الطبيعية أشكالها المتعددة التي هي ثمرة نتاج لتاريخ عريق القدم.

2. الحرف في لبنان (لمحة موجزة)

يعود تاريخ فنون الصّناعات الحرفيّة اللبنانيّة في غالبيّتها إلى العصر الفينيقي, الفخار والزجاج، وصناعة الصابون، والصباغ، والنسيج، وحبك سلال القش. تطوّرت هذه الحرف على مرّ العصور والحقب التّاريخيّة, فذهنيّة اللبناني تفتّقت دوماً عن ابتكارات حرفيّة جديدة ومستحدثة, اتصفت بالإبداع في التّصميم والتّقنيّة في التّصنيع, ممّا جعلها تتواكب وتتجدّد مع الأيّام...

حين اكتشف الإنسان خصائص الطّين، أدرك أنّ بإمكانه أن يقوم بتصنيعه يدويّا, ويجعله صلباً بتعريضه للنار. ولما كانت تربة لبنان غنيّة بهذه المادّة, ما كان على المحترف الفاخوري إلاّ أن يتعرّف عليها ويستعملها، بجميع ألوانها التّرابيّة وأينما وُجدت فوق الأراضي اللبنانيّة... لذلك تكثر المدن والقرى التي قام البعض من سكّانها بصناعة الفخّار وإن بدائيّا... ومنها على سبيل المثال لا الحصر، قرية آصيا اللبنانيّة قرب مدينة جبيل, حيث تتولّى النّساء الحرفيّات صناعة الاواني الفخّارية. ولعلّ ما تمّ العثور عليه بين آثار المدن اللبنانيّة السّاحلية أباريق تقديم الشّراب، وأباريق المياه والكؤوس الملوّنة، المعروضة نماذجها في المتحف الوطني في العاصمة بيروت، خير دليل على

قدم وعراقة هذه الحرفة التي اشتهرت بها بلدة الصرفند السّاحلية في جنوب لبنان، حيث يُصنع الزّجاج المنفوخ من مواد مكرّرة، ويتوفّر بعدد من الألوان الزّاهية الشّفّافة والجميلة...

أمّا صابون لبنان التّقليدي المصنوع من زيتِ الزّيتون, فيكتسب شعبيّة عالميّة بفضل نقاوته وميّزاته الترطيبيّة الطّبيعية... إذ يُصنع تقليديّاً من الزّيت الخاصّ الذي تعصره كلّ عائلة من أشجار الزّيتون التي تملكها، وينقش بالعربية اسم العائلة أو غيرها من الرموز على ألواح الصّابون دلالة على نوعيّة الزّيت المستخدم، ومهارة الصانع، أو وصفته السّريّة. ولا يزال حرفيو مدينتي صيدا في جنوب لبنان وطرابلس في شماله، هم أبرز وأقدم من مارس هذه الحرفة، رغم شيوعها في غالبية المناطق التي يزرع فيها الزيتون ويعصر فيها الزيت...

نشأت حرفة صناعة سلال وقفَفْ القشّ التقليدية لتلبي احتياجات المزارع والقروي اليومية باستعمال المواد التي وفرتها لها البيئة المحلية. ففي عكّار، شمالي لبنان, يستعمل بعض السّكّان النّباتات المزروعة محليّاً البامبو المحليّ المسمّى بالعود لصناعة السلال والصدور التي ينشر عليه خبز الصاج. وتتضمّن بعض المنتجات اللبنانيّة المصنوعة في بلدة كفريا في جنوب لبنان، سلالاً، وقبّعات، وبسط من القصب وأوراق النّخيل وشرائح قضبان القصب الذي ينمو عند ضفاف الأنهار...

كذلك امتازت بلدتي عرسال والفاكهة في البقاع اللبناني بصناعة المنسوجات من بسط معقودة وسجّاد, ذو النقوش والشكل الهندسي البسيط، المستوحاة رموزه من الطّبيعة اللبنانيّة. المنطقة التي يكثر فيها فتوفر البيئة الرعوية للمنطقة، حيث يكثر مربّي المواشي ورعاته الموادّ الأوّليّة للنساجات، فيُصبغ صوف الحمل و الماعز بصباغٍ خفيف, ويُغزل بعدها ويبدأ النّسج على النول اليدوي... وتعتبر حرفة التّطريز في لبنان فنّاً, فهذه الحرفة الشّعبيّة, هي من العلامات المميّزة في التّراث اللبناني، والتي ينتج عنها مفارش المائدة والأسرّة المطرّزة بإتّقان... وتُعدّ أعمال فنون التّطريز من الحرف المنزليّة التي تناقلتها أجيال النّساء، وطوّرنها من خلال عملن جاهدات مع الإبرة والخيط والقماش طوال أيّام السّنين المتعاقبة. ففي بعض المناطق اللبنانيّة، وبخاصة قرى وبلدات الشوف في جبل لبنان، تتنافس النّساء في لإنتاج أفضل الإبداعات، والتّشكيلات والتّقنيّات في فنون التّطريز...

أمّا بالنّسبة للأواني المنزليّة, فتعتبر الصّواني النّحاسيّة المطروقة, من الأساسيّات في لبنان، وتنتشر في الأسواق العتيقة. نجدها ترمز إلى ثقافة الاسترخاء اللبنانيّة مع ما يُصاحبها من فنون التّرفيه. وتشتهر لوازم المائدة من النّحاس الأحمر والفضّة, التي تُصنع في بعض قرى لبنان, كبلدة القلمون الشّماليّة, بطرازها الشّرقي، وزينتها حيث يقوم الحرفيّ النحّاس بطرق الصّواني النّحاسيّة

الحمراء والصّفراء يدوياً، بأحجام وأشكال مختلفة وزخرفة أطرافها برسوم ومنمنمات ونقوش عربيّة...

أما الصناعات الجزينية وأهمها السّكاكين والسيوف, يتمّ صنعها في قرية جزّين الجنوبيّة. بحيث يقوم الحرفيّون بتطعيم السّكاكين والسيوف وأدوات المائدة، المميّزة بقبضاتها المصنوعة من العظم بقطع من الذّهب، والفضّة، وغيرها من المعادن الثّمينة. غالبا ما تأخذ القبضات شكل طاووس أو طائر وتطلى بألوان زاهية. هذا, وتحظى هذه السّكاكين بسمعة طيّبة, ممّا جعلها تُقدّم كهدايا مميّزة للشّخصيّات المهمّة في لبنان وخارجه، واكتسبت شهرتها العالمية بفضل الرحلات التجارية والسياحية، والمهاجرين الذين نقلوها معهم إلى وطن الاغتراب...

ارتبطت هذه الحرف بنمط اقتصاد زراعي الاكتفائي الذي كان سائداً آنذاك، حافظ على استمراريتها حتى بدايات القرن العشرين، حين بدأت تبرز المنافسة مع السلع الأجنبية المصنعة، التي غزت الأسواق المحلية، خصوصاً أثناء الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918).

استمر إهمال وتهميش هذا القطاع الحرفي طوال فترة الانتداب (1918 - 1943)، حتى بدايات عهد الاستقلال. توالت بعدها الاحداث السياسية والاقتصادية المؤثرة على المنطقة، من احتلال فلسطين عام 1948 وإقفال الحدود الجنوبية، وتحول التجارة من حيفا إلى بيروت، إلى بروز عائدات النفط وإقفال قناة السويس، إلى اضطرابات الحكم في المنطقة، التي ساهمت في تنشيط قطاع الخدمات وبخاصة المصرفية منها، وتدفق عائداتها المالية إلى لبنان.

تميزت مرحلة الستينيات وحتى أواسط السبعينيات بالاستقرار السياسي والاقتصادي، الذي ساهم في تطور وازدهار الصناعة اللبنانية، ومن جملتها المصنوعات والحرف اليدوية. جاءت بعدها أحداث الحرب الأهلية التي اندلعت في نيسان 1975، لتتسبب بتدمير القطاع الاقتصادي اللبناني بكافة مكوناته.[1]

بقي الوضع على ما هو عليه حتى عام 1989، فمع انتهاء أحداث الحرب الأهلية باتفاق الطائف، وبداية ورشة إعادة إعمار لبنان، عاود بعض الحرفيين محاولة النهوض بحرفهم. نشأت في أكثر من منطقة لبنانيّة منظّمات اجتماعية، وجمعيات وتعاونيّات لإحياء هذه الحرف التراثية والمساهمة في إحياء نمط الحياة التّقليديّة، وخلق فرص عمل لهؤلاء الحرفيين. لكن نجاح هذه المحاولات ارتبط بالدرجة الاولى بالقدرة على خلق اسواق لبيع وتصريف هذه المصنوعات.

[1] علي بزي، (مارس/سبتمبر/1999)، الحرف التقليدية اللبنانية (دراسة إثنوغرافية)، المجلة العربية للثقافة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة 18، العدد 36، ص.ص 205 - 206 (بتصرف).

أستذكر جواب رئيس إحدى الجمعيات الحرفية حين سأله المدير العام السابق لوزارة الثقافة عن ماهيّة الدعم الذي يحتاجونه من الوزارة؟

فكان الجواب رئيس الجمعية: marketing, marketing, marketing، أي أن الحرفي يحتاج إلى تسويق يساعده على تصريف منتجاته.

إن هذا السرد الموجز لأبرز الحرف، يبرز المحطات التي ساعدت على التطور أو أسهمت في التقهقر، ويوضح الظروف والعوامل التي ساعدت في التمركز والانتشار. فقد إرتبطت الحرفة بالحيز الجغرافي(وجود المادة الخام وأو/السوق)، إذ نجد صناعة الأحذية في بنت جبيل وقعقعية الجسر والمروانية، الفخار في راشيا الفخار والغازية ودير بابا ودير كوشة، المكانس في الغسانية، السلال في كفريا وعين عطا، الأدوات الزراعية التقليدية في رشاف وبيت ياحون، المراكب وصناعة شباك وسلال الصيد في صيدا وصور وجبيل، تبييض النحاسيات(المبيّض العربي) في جويا، ندف وغزل وحياكة شعر الماعز في شحيم، الزجاج في الصرفند، حياكة العباءات على النول في بشتفين، دباغة الجلود في مشغرة، حياكة السجاد على النول في الفاكهة، حرفة صناعة الأجراس في بيت شباب، وحرفة السكاكين والسيوف(الصناعات الجزينية) موضوع هذه الورقة، في جزين.

3. الحرف اليدوية التقليدية كنموذج بحث

الحرف اليدوية التقليدية هي موروثات يسيطر عليها طابع الإهمال لجهة عدم تدوين عناصرها أو تسجيلها، وندرة الأبحاث التي تتناولها. فهذه الحرف التي لا تزال تختزن موروثاً من الناحية العملية والنظرية، نتيجةً لتصوير الواقع وتدوين ما تبقى في تاريخ وتراث وذاكرة الناس، بالتجميع والتوثيق للمعطيات كافة، وهذا أمر جوهري لكي نتلافى الوقوع في أخطاء من سبقنا وإهماله وخصوصا أننا الآن أمام واقع متغير بشكل مستمر وسريع،

فالتدوين حاجة أساسية وضرورية لتأريخ حقبة معينة من حياة الناس وتسجيلها بحيث أنها تحمل في ثناياها جزءاً من هوية مجتمعنا، وهدفنا الأساسي معرفة النقاط الأساسية لواقع هذه الحرف بأبعادها التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرمزية، بغية المحافظة عليها بتسجيلها، وتدوين القيم السائدة والتعمق بتحليلها، وإبراز ماهيتها بتوجيه الأنظار اليها، وهذا مجال اكتشاف علمي وبخاصة في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية. فالتراث واللغة وأشكال التطور في تاريخ الإنسان الذي هو محور الدراسات الانسانية.

1.3 تعريف الحرفة

"الحرفة هي عمل يدوي بشكل أساسي، تستعمل فيه الآلات المساعدة جزئياً ويسيطر عليه الطابع العائلي، حيث رب العمل يعمل لحسابه الخاص ويقوم بعمل أساسي في التصنيع بمفرده

أو بمساعدة معاونين من أفراد أسرته أو عمال مأجورين قليلي العدد. ويعمل برأسمال بسيط وهو الذي يدير عملية الإنتاج."

2.3 واقع الحرف

واقع الحرف التقليدية اللبنانية موزعة على الشكل التالي:

أ. تلاشي او اندثار بعض الحرف: مثل صناعة الطربوش، النجار العربي، الحداد العربي، السكاكين التقليدية، شعر الماعز، الجلالاتي، حياكة القش، الحياكة، الدباغة، حياكة الصوف، السروجي، التطريز وغيرها....

ب. حرف مستمرة: النجارة الفرنجية، الحدادة الافرنجية، الصابون، الحفر على الحجر، المنسوجات، الفخار، السيراميك، السكاكين الجزينية، المنتوجات الغذائية وغيرها...

4. الحرف الجزينية نموذجًا

تحكي الصناعات الحرفية الجزينية أو صناعة السكاكين والسيوف عن تاريخ جزين، فهي خير دليل على إرتباط الحرفة بالحيز الطبيعي والاجتماعي والثقافي للمكان الذي تنشأ فيه.

1.4 موقع جزين

تقع بلدة جزين في جنوب لبنان، تبلغ مساحتها حوالي 2421 هكتاراً، وترتفع حوالي1200 م عن سطح البحر، وتبعد عن صيدا حوالي 38 كلم وعن بيروت 68 كلم. وهي مركز قضاء جزين وهو أحد أقضية محافظة لبنان الجنوبي الثلاثة.

تعتبر جزين واحدة من أهم مدن السياحية الإصطيافية اللبنانية. فهي تتميّز بوجود العديد من الأماكن الأثرية أبرزها مغارة فخر الدين. وتمتاز بمناخها الجاف وطبيعتها الخلابة، وتشتهر بعدد محدود من الزراعات أبرزها التفاح والكرمة. ومن أهم المعالم السياحية فيها شلال جزين الذي يقع في شاهق صخري يرتفع 85 متراً.

تشتهر جزين عالميًا، بحرفة تصنيع السيوف والسكاكين والخناجر، وغيرها من أدوات المائدة ك"طقم السفرة" و"طقم السلطة" و"طقم الروستو" وأدوات الحلويات التي تصنع مقابضها من قرون المواشي. بالإضافة إلى تصنيع "علّاقات المفاتيح" porte-clés، سكاكين فتح الرسائل، "فتّاحات القناني"، وجميع أشكال الحفر على القرن و"الستانلس".

2.4 تاريخ الحرفة :

هناك قصة رمزية أخبرنا بها أستاذنا في بدايات دراستنا الأنثروبولوجية، تقول القصة: أقيمَت في السماء وليمة مقدسة على شرف المخترع الأول. ولما بدأ المخترعون بالتوافد في الموعد المحدد؛ كان الحارس على الباب يسأل كلاً منهم بدوره عن اختراعه: هذا اخترع الكهرباء، وآخر

الهاتف، وذاك الآلة البخارية، والدولاب، والفخار، ...وما زال يأمرهم بالوقوف جانباً، حتى أتى شخص يكسو جسده الشعر وهو شبيه بإنسان اليوم. سأله الحارس عن اختراعه، فأجاب: أنا أول من استعمل يده، فبادره الحارس قائلاً: تفضل الوليمة على شرفك.

يضيف أستاذنا: هذا هو الحرفي الأول، الذي بدأ باستعمال يديه ليقطع الأغصان ويشذبها ثم يصقل الحجارة والعظام ليصنع أدوات تسهل عليه سبل العيش، فالإنسان منذ وجوده هو حرفي يحاول دائماً اكتشاف أو صنع أدوات تساعده في حياته.

بدأت حرفة صناعة السكاكين والسيوف منذ عام (1700) في بلدة جزين، التي كان يفصلها إلى قسمين، نهر تعوّد الرعاة على رعي أغنامهم بقربه. ونظراً للوقت الذي يقضونه في البرية بمفردهم مع قطعانهم، اخترعوا وسيلة لتزجيته، فعمدوا إلى الحفر على أغصان الأشجار المقطوعة أشكال الطيور التي تواجدت في الطبيعة أمامهم، وأعجبوا خصوصاً بألوان طائر البط الذي يتكاثر على ضفاف النهر، فتفننوا في حفره على الخشب.

لاحقاً بدأوا بتجميع الأغصان وتجفيفها، ومن ثم تقطيعها إلى أجزاء صغيرة، ثم عمدوا إلى حفرها خلال فصل الشتاء، حيث لا يمكن رعي الأغنام خارجاً (يقول المثل الشعبي: اليومْ يومْ البَرْبَرِيّة، لا فْلاحَة وَلا رْعِيّة).

وبعد عقد أو عقدين قاموا باستبدال المقابض الخشبية العادية للسكاكين والخناجر – التي كانت جزين تشتهر بصناعتها – بالمقابض المحفورة. ومع التجربة والخطأ ومرور الزمن (حوالي العام 1760 – 1770) تبين لهم أن المقابض الخشبية تبلى وتنكسر سريعاً، فابتكروا فكرة إستبدال المقابض الخشبية بشيء من عندي اتهم. لاحظوا أن قرون المواشي تبقى زمناً طويلاً بعد ذبحها، فبدأوا بتجربة استبدال المقابض الخشبية للسكاكين والسيوف بقرون الماعز والغنم، وهي فكرة ما زالت إلى اليوم أساس هذه الحرفة وميّزتها.

في البداية، كان الجزء الممكن استعماله من القرن صغيراً، لأن قرون معكوفة الشكل، بخاصة قرون الأغنام. حاولوا تجربة تقويم القرن وتسويته كما يقوّم الحديد بواسطة النار، وبعد عدة محاولات نجحت الفكرة لتصبح عماد حرفة لا تزال إلى يومنا هذا.

بدأت هذه الحرفة بالازدهار وأطلق عليها "مِزْرابِ الدَّهَبْ"، تبنتها بعض عائلات جزين، وإتسع نطاق العمل فيها، فتم استيراد قرن الجاموس من العراق ومصر والهند، لاستخدامه (بعد الحفر عليه) كمقبض للسيف، حيث يمتاز بقوته ولونه وطوله. كما بدأ إستخدام أواني وأدوات المائدة "الستانلس"، فيقص جزء من القبضة ليضاف إليها القرن المحفور على شكل طائر.

إزدهرت هذه الحرفة خصوصاً في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كما أشرنا وشارك حرفيو جزين بالكثير من المعارض في لبنان، إيطاليا، فرنسا، السويد، ألمانيا الشرقية (سابقاً)، وبعض الدول العربية. وكانت هذه الحرفة تضم 35 مؤسسة يعمل فيها 150 حرفياً. لكنها بدأت بالتراجع بتأثير الحرب اللبنانية كباقي الحرف، وأصيبت بالجمود إبّان الإحتلال الإسرائيلي عام 1982.

في العام 2000 وبعد إنجاز تحرير معظم الاراضي اللبنانية، استعادت جزءاً من عافيتها، وهي اليوم تضم 13 مؤسسة يعمل فيها 35 حرفياً بمبادرات فردية ومساعدة قليلة من "تعاونية حرفيي جزين" التي تأسست عام 2003.

5. الأدوات المستخدمة في الحرفة وطريقة التصنيع:

أشرنا إلى أن كل حرفة لها ادواتها التي تنفرد بها عن غيرها من الحرف.

1.5 الأدوات المستخدمة

قبل أن نتكلم عن طريقة التصنيع، سنقوم بسرد للأدوات والتقنيات التي يستخدمها الحرفي في عمله، مع شرح لكل أداة:

أ. **المقدح**: هو عبارة عن أسطوانة خشبية في رأسها ريشة لولبية مدببة، للأسطوانة عدّة نتوءات بارزة يمر عبرها خيط صوفي (قطره حوالي سنتمتر واحد) مربوط في نهايتيه بقوس خشبي، عبر تحريك القوس، يتم "قَدْح" [ثقب] المكان المطلوب. لا يزال هذا المقدح مستخدماً، لتحديد وثقب مكان العينين. ويتم أيضاً إستخدام المقدح الكهربائي بِرِيَشِه المختلفة الأطوال والأحجام لباقي الغايات.

ب. **الملقط**: يتم إمساك القرن بواسطته أثناء عملية إحراقه، وهو من الحديد، طوله حوالي (20 سم).

ت. **المنجل**: وهو منجل صغير (طوله لا يتجاوز 10 سم)، يده خشبية، ونصله حاد له شكل نصف دائرة، يتم بواسطته كشط القرن بعد حرقه لإزالة الأجزاء الزائدة وغير المطلوبة.

ث. **الفرن**: كان عبارة عن كانون فحم يحوي جمراً دائم الإشتعال بواسطة منفخ يدوي. ثم تم إستخدام "بابور" الكاز، وهو عبارة عن جرة حديدية تمتلئ بالكاز ولها عين للإشتعال، يسبقها مفتاح لتحديد كمية النار. أما اليوم فيتم إستخدام أسطوانة حديدية طولها حوالي (30 سم)، لها مفتاح لتحديد كمية اللهب، يتصل بها خرطوم مطاطي والذي يتصل بدوره بأنبوبة غاز.

ج. **المبرد**: وهو آداة حديدية لها أطوال مختلفة، لكنها تشترك بأن لها سطحاً خشناً، وهي على ثلاثة أنواع: "الخشّابي" لإعطاء القرن الشكل الخارجي؛ "الخشن" لتنعيم القرن؛ و"الناعم" لحفر مكان الجانحين، ويتم إستيرادها خصيصاً من السويد.

ح. **الملزمة**: يتم وضع القرن فيها لتثبيته بغرض تقويمه. وهي عبارة عن جهاز من الحديد له جانب ثابت، وجانب متحرك بواسطة لولب، يتم توسيعه وتضييقه تبعاً لحجم للقرن المستخدم.

خ. **المنشار اليدوي**: آداة حديدية مختلفة الطول، تستورد من السويد، لها جانب مسنن، وهي ثلاثة أنواع:

- منشار "التشربك" سمي كذلك لأنه يعطي خطوط متقاطعة؛ وهو عبارة عن قوس طوله 15 سم، له ريشة ذات أسنان رفيعة عرضها 2 سم.
- منشار "القطع" لقطع الأجزاء غير المطلوبة؛ وهو عبارة عن صفيحة على شكل مستطيل طوله 25 سم وعرضه 10 سم، أحد جانبيه مسنن وله مقبض من الخشب.
- منشار "التطعيم" لحفر مقطع طولي على القرن من أجل "تطعيمه" أي إستدخال رقائق من الألومنيوم أو النحاس عليه.

د. **القطاعة**: يتم إستخدامها لقطع رأس المسمار المفلطح كما بقيته بعد تثبيت الجانحين، وهي من الحديد، لها قبضتين مرتبطتين بنقطة محورية، ورأسها دائرة مفرغة ذو فكين قاطعين.

ه. **المطرقة**: تستخدم لتثبيت الجانحين بواسطة المسامير، كما لتطعيم "جسد" الطائر، وهي من الحديد لها قبضة خشبية (حوالي 10 سم) ولها رأسين أحدهما مفلطح، والآخر على شكل (V).

و. **القرن**: وهو على ثلاثة أنواع: قرن الجاموس طويل، غليظ وذو لون أسود ويمتاز بقوته، ويستخدم عادةً كمقبض للسيف؛ قرن الغنم أشقر اللون إلى أبيض، ذو شكل ملتف؛ قرن الماعز رفيع، طويل، وأسود.

ز. **المسمار**: قطعة من الحديد لها رأس مدبب ورأس مفلطح، قطره (2 ملم)، وطوله (4 سم) يتم بواسطته تثبيت الجناحين.

2.5 طريقة التصنيع[1]

أ. تقويم القرن:

[1] تم جمع هذه المعطيات من الحرفي يوسف عون، العمر: 83 سنة، جزين بتاريخ 16/تموز/2018.

يَقطع الحرفي بواسطة منشار "القطع" الجزء الفارغ من القرن، ثم يُقطّع القرن إلى قطع صغيرة حوالي (10 سم)، أما الجزء المراد إستخدامه كمقبض للسيف فهو حوالي (15 – 20 سم). يمسك الحرفي القرن بواسطة الملقط، ويقلّبه على النار حتى يتجمّر ويلين ويصبح قابلاً للتقويم، ثم يقوم بتثبيته بالملزمة ليقوّمه بواسطة المطرقة، وتزال الزوائد بواسطة المنجل.

كان يتم إستخدام الجمر مع منفاخ لإبقائه مشتعلاً حيث يوضع القرن على الجمر، أما اليوم فيستعمل الغاز الذي يُشوى بواسطته القرن. بعد أن يقوّم القرن وتزال الزوائد، يُترك حتى يبرد ليصبح جاهزاً للجزء الثاني من عملية التصنيع.

ب. **الحفر على القرن:**

يكون الحفر بواسطة المبارد، "الخشّابي" لتسوية الشكل الخارجي للقرن، وإزالة الزوائد غير المرغوبة. "المبرد الخشن" ينعّم القرن، و"الناعم" لحفر مكان الجانحين، الرأس والعرف.

يتم حفر رأس البطة، وإعطائها الشكل المطلوب، ومن ثم "يُنْشَر" أعلى الرأس لتثبيت العرف الأحمر عليه، ويتم "بَرْدُهُ" لإعطائه الشكل المتدرج.

بعدها يتم إستخدام منشار "التشربك" لتسوية مكان الجانحين حتى يلتصقا بالقرن، كما تستخدم المطرقة لتثبيت الجناحين بواسطة مسمار يُقطع الجزء المفلطح منه بواسطة "القطاعة". يكون الجناحان من النحاس عادة، ويمكن أن يُستخدم الذهب بديلاً للنحاس تبعاً للطلب. من ثم يستخدم الحرفي منشار "التطعيم" على "ظهر" القرن/الطائر، لإفساح المكان لإستدخال وتثبيت قطع من النحاس أو الألومنيوم بواسطة المطرقة.

ت. **نقش وتطعيم القرن:**

يقوم الحرفي بحفر الطرف الأسفل من القرن (الموازي لرأس البطة) ثم يصهر قليلاً من القصدير ويصبه ساخناً داخله، ثم يُدخل آداة الطعام التي يريد وضع مقبض لها. هذه الأدوات تستورد من إيطاليا ولها شكل خاص، حيث حلّ محل القبضة قبضة تحتوي على زردة طولها (5 سم) تسمح بتثبيتها بالمقبض الجديد.

في السابق كان يتم إستخدام "الستانلس" العادي المصنّع محلياً بعد قطع جزء من قبضته. الآن يتم إستيراد "الستانلس" المصقول والمبروم (وذو الشكل الخاص) من إيطاليا، بعد أن وجد الحرفيون أن طبيعة هذا الشكل هي الأفضل لضمان ثبات القبضة كما أن

الشكل المبروم يعطي جمالاً ورونقاً للقطعة. وفي العام 2003 أضيفت الرقبة إلى القطعة لزيادة جماليتها، وهي اليوم تُصنع في بريشيا[1] بناء على الطلب.

بعد ذلك يقوم الحرفي بنقش الجوانح وباقي أجزاء المقبض، وتطعيمها بالنحاس أو الذهب، والأحجار الكريمة، كما يتم ترصيعها وزخرفتها برسوم وأشكال مبتكرة، منها ما يشبه البط، وأحياناً يوحي الشكل بطائر الفينيق المتخيّل، فـ"الفن التقليدي هو فن يمثل فكرة جوهرية تُصوَّر بأشكال رمزية".[2] وأخيراً، يقوم الحرفي بتنعيمها وتلميعها لتصبح جاهزة للعرض.

أحياناً تشارك النساء بهذا الجزء من العمل، حيث يقمن بنقش وزخفة القرن، قبل أن يسلمنه للحرفي الذي يقوم بتلميعه النهائي. ليس هناك من محظورات حول تعليم هذه الحرفة للإناث، أو إشتغالهن بها، فالحرفي يعلم أبناءه الذكور و/أو الإناث من يلمس عنده الموهبة والرغبة أصولها وأسرارها. لكن قلة من الفتيات يحترفنها كمورد معيشي أساسي، إذ تتعارض مع تعليمهن الأكاديمي فعملهن لاحقاً بمجال إختصاصهن، أو مع حياتهن الزوجية ومتطلباتها، حتى لو تزوجن لاحقاً أحد أبناء الحرفة.

ث. **العرض:**

بعد الانتهاء من تشكيل وزخرفة وتلميع القطع، يتم توضيبها في علب خشبية مرصعة، ومبطنة من الداخل بالمخمل، وهي على ثلاثة أنواع: علب تحوي (12) قطعة؛ علب تحوي (24)؛ وعلب تحوي (36) قطعة. وكهدايا خاصة يتم توضيبها في علب تحوي مائة قطعة، خاصة أن هذه المنتجات مشهورة باعتبارها هدايا الملوك والرؤساء.

6. أهمية الحرفة ومدلولاتها

لكل حرفة أهمية تتخطى البعد الاقتصادي، لتطال البعد الثقافي تحديداً، حيث تشكل واسطة تنقل مخزون الذاكرة والتراث إلى الأجيال اللاحقة، هي نبض الهوية وبعدها الحضاري في واقع العالم اليوم، حيث تتلاطم الثقافات ولا تتلاقح، وحيث يتم التثاقف عبر القسر والإكراه، فلا بد من التمسك بهذا المخزون لحماية الحاضر والمستقبل.

تُميّز "حنا أرندت" Hannah Arendtالحرفة من حيث ديمومة إنتاجها، فـ :"الحرفة هي النشاط الذي يطابق لطبيعية الوجود الإنساني. .. تمنح الحرفة عالماً صناعياً من الأشياء مختلفة

[1] مدينة في إيطاليا تشتهر بصناعة الستانلس المبروم والمصقول.

[2] إبراهيم الحيدري، إثنولوجيا الفنون التقليدية، سوريا، دار الحوار، 1984، ص 154.

بشكل تام عن كل وسط طبيعي. إن كل واحدة من الحيوات الفردية تقطن في داخل هذه الحدود، في حين أن هذا العالم في حد ذاته تم تخصيصه إلى خلودها وتعاليها على الكل.

إن الوضع الإنساني للحرفة هو الانتماء إلى العالم... فالحرفة تقوم بإنتاج ما يدوم على خلاف الإنتاجات المعدة للاستهلاك والتي تنتهي قيمتها بمجرد استعمالها". [1] وهذا ما شدد عليه بول ريكور في تفريقه بين العمل والحرفة، إذ يقول: "العمل هو نشاط خاضع إلى ضرورات الحياة ويعتني بالمحافظة على الحياة الفردية والنوعية. أما الحرفة فهي محاولة صنع عالم من البراعات المشيدة بواسطة يد الإنسان".[2] فالحرفة إذن، تقوم بإنتاج سلع للاستهلاك، لكنها لا تفقد قيمتها بعد استعمالها، بل تحوي رمزية ودلالات، تدفعها دوماً لأن تكون خازناً لمحيطها الذي انطلقت منه وبالتالي ناقلاً للأجيال التي ستتوارثها. إن صورة الطائر (كمثال) نبعت من واقع البيئة، حيث تكاثر البط في ذلك الزمان، فالتفت إليه الحرفي، لكن صورة الطائر تم تحويرها وتشكيلها، لتوافق المخزون الثقافي أيضاً، لتصبح تميّزاً يشابه صورة الفينيق كما تتخيّله العامة، وليرتبط بالوطن الذي يشبّه أبناؤه بهذا الطائر، الذي كلما احترق، برز من رماده طائر وليد متجدد.

إن هذه الحرفة، تم توارثها أباً عن جد، لكنها ليست حكراً على عائلة محددة في جزين قدر ما هي تميز خاص لجزين نفسها. يقوم الكبار بتعليم الصغار أصول الحرفة وفنونها، ويترك لهم المجال لتطويرها وابتكار أشكال فنية مختلفة. إن هذا التعليم والتوارث له مفاعيل إيجابية على الأسرة من حيث تماسكها وتلاحمها، كما على صعيد جزين بشكل عام، حيث هم أبناء حرفة واحدة. إن التحليل الإناسي للصناعات الحرفية يوضّح دورها ووظيفتها، كما يوضّح العلاقة الجدلية المتبادلة بينها وبين الإطار الثقافي العام في المجتمع. إن الحرفي/الفنان يكتشف في الشيء الذي أنتجه، ليس مجرد وسيلة عملية فحسب بل شهادة لقيامه بفعل خلاق.[3] وهذا يتوضح بطريقة تعاطي الحرفي مع منتجه بعد انتهائه منه. إذ امتنع عميد حرفي جزين السابق سمير الحداد عن بيع السيف الذي صنعه بمبلغ (25) ألف دولار أميركي، مبرراً ما قام به بالقول:" كان يمكن أن

[1]Hannah Arendt, Condition de l'homme moderne, éditions Calmann-Lévy, 1983, pp15 .

[2] Ricœur Paul, préface de «condition de l'homme moderne», Hannah Arendt, éditions Calmann-Lévy, 1983, pp XIII – XIV

[3] م. س. إبراهيم الحيدري، إثنولوجيا الفنون التقليدية، ص 160 (بتصرف).

أقبض ثمنه 25 ألف دولار وأضعها في جيبي لكن كان هذا يعني أيضاً أن يغيب السيف عن عيني. غيري ليس أولى مني في الإستمتاع بروعته، لذلك احتفظت به لنفسي ولعائلتي من بعدي"[1].

7. الحرف التقليدية وإشكالية التنمية المستدامة.

إلى أي مدى يساهم توقيع الدولة اللبنانية على اتفاقيات الأممية، كاتفاقية حماية التراث الثقافي غير المادي وغيرها، في التأسيس لرؤية لقراءة علمية للحرف التراثية، تساعد على صياغة برنامج تنموي مستدام يحافظ على ديمومتها؟

إن التنمية المستدامة في العالم الثالث كممارسة تنفيذية وفعلية ما تزال محاطة بكثير من القيود السياسية والاجتماعية والدينية والدولية أيضا، التي تتسبب في تشتيت جهود وإمكانيات التنمية، باعتبار أن التحقق الفعلي للتنمية هو تهديد حقيقي لمصالح الكثير من الكيانات الاجتماعية التقليدية القائمة، كما للمصالح الاحتكارية للدول الأجنبية. هذا ما يؤكده بول باران بقوله: إن الطبقات الحاكمة في الغرب لديها مصالح خاصة في استمرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الراهنة في البلاد النامية، والتي تشكل التنمية الحقيقية تهديدا لها.

فإذا كانت الغاية والهدف النهائي لأي خطة أو برنامج للتنمية هو تحسين أحوال المجتمع والانتقال به إلى المستوى الأفضل، فإن مدى نجاح هذا البرنامج وتكاليفه يتوقف إلى حد كبير على ايجابية العنصر البشري في هذا المجتمع نفسه، باعتباره الغاية والهدف النهائي من جهة، وعامل الحسم في نجاحها أو فشلها من جهة أخرى. ونلاحظ أن برامج التنمية في المجتمعات النامية، تتأثر إلى حد كبير بطبيعة التراث الشعبي، وما تتضمنه عادات الناس ومعتقداتهم ونظرتهم إلى الكون والحياة وطريقة حكمهم على الأشياء. لهذا يجب أن يتكامل وبنسبة صحيحة الايمان بالتراث والاندفاع نحو التقدم، لكي نضمن انتظام ايقاع التطور الثقافي والاقتصادي. لذلك فإن أي خطة للتنمية لا تراعي هذه الأبعاد لابد وأن تنتهي إلى طريق مسدود، أو إلى نتائج محدودة جدا مما ترمي إليه في أحسن الأحوال، مهما توفرت لها من العوامل الاقتصادية الكافية والإطار السياسي المناسب.

نستطيع في ضوء كل التحليلات السابقة أن نؤكد على أهمية التراث الشعبي كطرف أساسي وهام لا يمكن تجاهله في أي برنامج أو خطة للتنمية، فهو يشكل بكل أبعاده ومساراته قضية أساسية لا يمكن تجاهلها، وبناء ضخما لا يمكن تجاوزه عند أي دراسة لإعداد وتنفيذ أي من هذه برامج.

[1] كامل جابر، سمير الحدّاد عميد حرفيي جزّين، جريدة الأخبار: 26/ت2/2007.

لذلك يتوجب علينا دراسته كل عناصر التراث الشعبي بكل ما يحويه من مضمون لامادي (العادات والتقاليد والأمثال الشعبية، والأغاني وغيرها)، ومضمون مادي (الحرف، والأدوات وغيرها)، عند التفكير والعمل على تنمية المجتمع وتغييره. على ضوء التعرف والفهم الحقيقي لموقف التراث يتوقف النجاح الحقيقي والهدف النهائي لأي برنامج انمائي في المجتمع، فالمجتمع بمجموع أفراده هو الوسيلة والأداة الحاسمة لتنفيذ وإنجاح برنامج التنمية، وهو الغاية منها في نفس الوقت.

مما تقدم، تتجلى أهمية حفظ الذاكرة المجتمعية، في الحفاظ على الروابط الاجتماعية التقليدية التي ترتبط بها. وحيث أن هذه الذاكرة تشكل إطارا معياريا للسلوكيات وللممارسات أي مرجعا ذهنيا بالنسبة للسكان في حياتهم اليومية فهذا يجعل ضبط المجتمع يمر أيضا عبر ضبط تطور هذه الذاكرة، التي تتوحد من خلالها الأفكار والجهود ويجتمع أفراد المجتمع على تاريخ واحد.

8. المشاكل أو المعوقات التي تواجه تنمية الحرف التقليدية

ينطوي غياب تناول موضوع الحرف اليدوية التقليدية من حيث طبيعة الترابط الجدلي المعقد بينها وبين سياقها الاجتماعي- الثقافي والتاريخي الذي نشأت فيه، على موقفين هما موقف تقنيع التراث الحرفي، موقف تسليع وتوظيفه، وذلك كي تتفق مع اوجه استخدامه الذرائعية والجماهيرية.

1.8 موقف التقنيع

يقضي هذا الموقف باستبدال التجليات المعاشة للحرفة، بأخرى تصورية يتم اسقاطها او تزويقها بها. فتمارس عليها عملية اعادة طلاء، وذلك بإعطائها ترميزات حداثية وعناصر دخيلة على مقوماتها اتساقاً مع علاقات اجتماعية قائمة آنياً، مما يؤدي إلى الإيهام بذاكرة تراثية تغذي الاحساس بامتدادها، وذلك سعياً إلى التربح منها بكل وسيلة جذب وترغيب ممكنة فيغدو التقنيع قائماً على تزييف المادة الحرفية الأصيلة، حين يلبسها اقنعة ليست منها.

2.8موقف التسليع والتوظيف

يقوم على الاستخدام النفعي للحرفة، بتحويلها من موضوع تراثي Objet traditionnel إلى موضوع استعمالي Objet usuel محقق لمصلحة او منفعة آنية. تقوم النزعة النفعية على تواطؤ بين السياحة والتراث والاعلام وسياسة الاستهلاك وانتزاع التراث الحرفي من معطاه وجوهره الثقافي إلى معطاه وظاهره الأدائي.

يرتبط ذلك بتسليع وتسويق المفردات التراثية (المصنوعات اليدوية) واستثمارها للغنم الاقتصادي، والتعامل معها كبضاعة للافتنان بما يلائم ذوق السائح او المشتري ولو على حساب

جوهرها المادي والمعنوي. فتخضع مفردات التراث لنوع من التنميق والتزويق من شأنه تعديلها، مما يجعل منها سلعة نمطية ومجرد عاديات استهلاكية، ووسيلة لجذب السياح. يؤدي ذلك إلى الغاء المعطى الثقافي لمجموعة التقاليد الحرفية المتوارثة، وبالتالي فقدان جوهرها الابداعي باعتبارها حلقات من التواصل والتفاعل الانساني والتناسق التاريخي والبيئي.

توصلنا من خلال البحث الحقلي لنتائج ملموسة ولم تعد مجرد أفكار ورؤى سريعة كما الناظر من خلال سيارة مسرعة، أو المنطلق بأفكار وإيديولوجيات ونظريات تطلق بعمومياتها. بل ترجلنا ميدانياً ودخلنا المحترفات وأماكن العرض، تحدثنا وتعايشنا مع الأشخاص بحيث نشاهدهم ونشارك حياتهم اليومية بكافة تفاصيلها. وأستوضحنا ما نجهله وربطنا الظاهرة بمثيلاتها باعتمادنا الدراسة الحقلية واستخدام تقنيات ساعدت في كشف الحقائق. ومن الناحية العملية، ومع تنوع المعطيات تم استخلاص النتائج الآتية:

أ. الأحداث اللبنانية وما زلنا نلملم ذيولها، أحدثت خللاً في فصل الفرد عن ذاكرته، وسلخ الإنسان عن ماضيه ما يؤدي إلى أوخم العواقب. وحالة اللاإستقرار والتدهور الأمني التي يعاني منها المجتمع اللبناني خلال فترات متقاربة أو متباعدة.

ب. السياسات المحلية وأثرها في إبقاء الأمر على ما هو عليه. فالواقع الإجتماعي يعيد إنتاج ذاته. وذلك للمحافظة على الأوضاع القائمة. فالأزمات تكسر المألوف وربما إفتعالها سبب اساسي للوصول لمثل هذه النتائج.

ج. ملكية الحرفي لوسائل إنتاجه، وقد تطورت من البسيط واليدوي إلى المعقد والآلي ولها دور أساسي كوسيط بين الحرفي ومادة الصنع. وقد تغيرت من حيث شكلها ومادة صنعها وطريقة استعمالها. وإدخال الأدوات يختلف حسب الحرف ونوعية السلع المنتجة ومنافستها لمثيلاتها.

د. الحرفي رأسمالي معوق بسبب طبيعة الملكية وضآلتها وغياب حرية الحركة الرأسمالية. فالرساميل ضئيلة فهي من المدخرات أو بيع عقار أو تعاون الأب مع أبنائه أو إخوته أو مساعدة بعض المغتربين.

هـ. الطابع العائلي المسيطر في علاقات الانتاج، مع الاعتماد أحياناً على بعض الزملاء، إذ لا يمكن فهم الحرفة إلا بدراسة الحياة العائلية، لأنها تشكل علاقة تضامن أسري وثيق. وضرب التماسك العائلي هو أحد أسباب تدهور الحرف .

و. بروز دائرة علاقات جديدة وخروج الحرفي عن دائرة العلاقات الإجتماعية السائدة التي تعتمد صلة القربى من حيث السكن والزواج والعلاقات.

ز. تتميز المؤسسة الحرفية بصغر حجمها وحجم الرأسمال الصغير. من قلة عدد العاملين بها وهذا مرتبط إلى حد ما بحجم الأسرة والظروف الإقتصادية المواكبة.

ح. توقيت العمل غير منتظم والسبب هو الطابع العائلي المسيطر. فالعمل يكون بحرية وحسب المقتضى. وإذا تعدى إلى الأجراء فيكون على حساب القطعة.

ط. عدم ثبات الحرفي في العمل. وذلك يعود لعدة أسباب أبرزها الحالة الأمنية، أدى ذلك الى نزوح بعض الحرفيين من مسكنهم الأصلي وممارسة المهنة في اماكن اقامتهم الجديدة، ولكن معضمهم لم يتمكنوا من نقل المحترف لصعوبة وإرتباط العمل مع متممات رديفة.

ي. ثم عدم الإحساس بالإنتماء الوطني وهذا ما نلاحظه من خلال رغبة المواطن في الحصول على جنسية ثانية ومحاولة السفر بأية وسيلة. وهذا يحول المهنة الى حالة من عدم الاستقرار ويؤدي إلى إهمال الواقع وعدم المحاولة لاكتشاف الحلول لأية أزمة. فالمعالجة هي الهجرة وترك الوطن كطموح مفضل، وهذه من الأسباب التي تؤدي إلى ضمور الحرف وعدم تطويرها.

ك. إبتعاد الشباب عن العمل الحرفي، وعدم توريث الحرفة، ومتابعة تعليم الأبناء في مراحله المتعددة، وعدم التخصص في مجال العمل الحرفي كان سببا في إبتعاد الاولاد عن عمل الاهل.

ل. الإستغلال، والإحتكار، لأن أغلب الحرفيين لا يسوقون إنتاجهم بشكل مباشر، حيث نجد الوسطاء أو أصحاب المعارض والصالات، وغالبا لا يصرحون عن الكنز البشري الحي الذي أنتج السلعة. ويضاف الى ذلك عدم معرفة الحرفي بكيفية التسويق، والدراية والمعرفة لمتطلبات السوق ودراستها.

م. عدم الإهتمام بالتنظيمات النقابية والتعاونية أو ربما تم تهميشها أو ضربها، وأحيانا نجد روابط نقابية وتعاونيات لا علاقة لذوي الشأن بها، حيث تتدخل المصالح السياسية أو المادية....

ن. سهولة التواصل بين الشعوب وانتاج سلع شبيهه بالمحلي. حصل ذلك في إطار ظاهرة العولمة، وسيطرة مقولة القرية الكونية مع التحفظ على هذه المصطلحات. أمام هذه الهجمة والواقع الاقتصادي المضطرب الذي ترك آثاراً سلبية على البنية الاقتصادية المحلية بشكل عام، والحرف بشكل عام والسياحية جزءاً من هذا الكل. أهمية السوق في تطور الحرف وازدهارها، فمن خلال هذه الظاهرة تم نقل الحرفة من إطارها الضيق الفردي إلى القرية ثم المنطقة ثم تصدر إلى الخارج. فمن الواجب التأكيد على أهمية السوق وإيجاده. أما الآن فإن غَزْوَ بلادنا مبرمج ومدجج. ومما لا شك فيه أن المنافسة هي إحدى الأسباب في وجود الأسواق.

ويضاف صعوبة المنافسة مع البضائع المستوردة، وإنتاج وطني لا يجد الحماية، والإستيراد مسموح بالحد الأدنى من القيود، وضرائب على المواد التي يراد تصنيعها تصل إلى 36%، والمواجهة

مع قطاع التجارة الخارجية يجعل التجار يتحكمون بأسعار هذه الحرفة أو تلك. أدى ذلك الى إغراق الأسواق بالإنتاج المستورد، وخاصة الأسيوي المتميز بالأسعار الرخيصة والذي يقدم معطيات تراثية لبنانية. فقد تراجع في الانتاج وتناقص الطلب.

س. فالحرف تعيش ظروفاً خاصة في خضم متطور ومتغير بشكل مستمر وسريع. فهي جزء من كل يتفاعل مع ظاهرات خارجية وداخلية. فالحرفة هي إحدى الظاهرات وواقعها محصلة ونتيجة لكافة المؤثرات المحيطة. فحرف قد اندثرت وأخرى مهيأة للإندثار بعد أن بدأت الهوية الشخصية للمجتمع بالذوبان وظهور أشكال ونماذج جديدة نتيجة التفاعل مع المستجدات باقتداء المغلوب بالغالب في إطار التبعية القائمة. ونجد الاعتماد على التقليد وغياب الإبداع فالانتاج أصبح مقتصراً على تركيب ولصق أجزاء جاهزة مستوردة.

ع. من هنا تبرز أهمية التخطيط التنموي والمستديم، لأن الحرف لا تجد الرعاية من قبل المؤسسات الرسمية، أما الدراسات والأبحاث فهي محدودة وهي ما نقوم به ضمن دراسات اكاديمية ولم تأخذ طريقها الى من يصنع القرار.

خاتمة

ما نطمح اليه من خلال الدراسات هو الخروج بنتائج نظرية وتطبيقية لفهم واقعنا المعيش، وخاصة مع التحولات السريعة بربط العلاقة بين النظم والتفاعل العصري القائم. وخصوصا ان هذا المجتمع طامح لاقامة مجتمع عصري في بنيته وله تقاليد وعادات عريقة. السؤال الذي يطرح هنا وعلى نتاجنا المعرفي ضمن الدراسات الانتروبولوجية أو السوسيولوجية، فهل توصلت الى فهم وتفسير مجتمعنا المحلي؟ ومدى قدرة المفاهيم التي نستخدمها في تحليل ودراسة مجتمعنا؟

فالتوجه إلى هذه الحرف التقليدية السياحية كمجهود علمي ميداني لموضوع طال إهماله، هدفه إلقاء الضوء على هذه الحرف، والحفاظ على تراث قديم، ولفت النظر إلى واقعها القديم والمستجد. وذلك للإنطلاق من ثقافتنا الشعبية إلى الثقافة العالمة المتخصصة.

وقضية هذه الحرف السياحية والتقليدية هي جزء من موروث ثقافي ومن قضية كبرى في أوطاننا، بعد أن طغى التصنيع بشكل عام على إقتصاد بلادنا، وتحولنا الى مجتمعات مستهلكة غير منتجة، أدى الى نوع من قلة الاهتمام بالانتاج الصناعي وإنخفاض ما تسهم به الصناعة في الدخل العام. رغم تزايد المنشآت الحرفية الصغيرة. هنا نشعر بالفعل بإشكالية نظرية باننا أمام ازمة، وهي بحاجة الى عرض وشرح ومقاربة علمية على المستوى الأنتروبولوجي والسوسيولوجي بالإضافة الى العلوم المتممة.

توصيات/ مجالات تنمية الحرف السياحية

لا شك أن النجاح إي محاولة يتطلب استمرارية تضافر جهود الدولة والأفراد على كافة المستويات، فالحرفي إنسان مكافح يستحق التقدير لأنه ناجح رغم كل الظروف والمستجدات، ويقوم بعمله بشكل طوعي بدون إرشاد أو تعليمات من الجهات الرسمية، فالدولة غائبة تماما، والحرفي متروك يصارع لوحده، فهو بحاجة للرعاية بالتأكيد على المتطلبات التالية:

أ. ضمانات اجتماعية، وتأمينات صحية، وذلك بإقرار قانون الضمان الصحي للحرفيين، بغية شعورهم بالاستقرار.

ب. حماية جمركية، دعم المواد الخام المستوردة من خلال تخفيض الرسم الجمركي، فتح الأسواق والإغراق الحاصل من السلع المستوردة الذي يسيء ويحجم القطاع الحرفي، وهذا يفترض رفع الرسوم على المستورد والشبيه للإنتاج المحلي.

ت. المساعدة في توجيه الحملات الإعلامية وتسليط الضوء على الانتاج وإبراز أهميته ومضمونه والتعريف بهذه المنتوجات، من خلال: المؤسسات الإعلامية السمعية والبصرية، البلديات، المعارض، الهيئات الاجتماعية. لتسهيل وصول السلعة الى المستهلك

ث. المساهمة في استعمال الانتاج الحرفي السياحي بالمؤسسات الرسمية، وإعتماد الهدايا على المستوى المحلي أو عالميا، من الانتاج الحرفي فائق الجودة والتركيز على أن يكون كذلك.

ج. تكريم الكنوز البشرية الحية من الحرفيين، وبشكل سنوي ودوري، وذلك عربون تقدير ووفاء.

ح. إدخال تعليم المادة الحرفية والتعريف بها في المناهج التعليمية والنشاطات اللاصفيّة في المدرسة، مع التشديد على شرح وتفسير مضمونها الثقافي الرمزي والتربوي، وإبراز أهميتها وجمالها ووظيفتها. بناء علاقة تفاعلية بين الطالب وتراثه، فلا يبقى مجرد سامع ومشاهد ومتلقي وذلك من خلال التجربة والمناقشة والتعليقات وإبداء الرأي وتخصيص زيارات ميدانية تتيح للطالب المشاركة والمساهمة في الحفاظ على المادة التراثية. .

خ. السعي إلى اكتشاف المواهب والإبداعات، دعمها، تثميرها وتوفير شروط نجاحها وإستمرارها.

د. الاهتمام بالفروع الجامعية التي تدرس التراث بكافة مناحيه كالآداب والفنون والآثار والتاريخ والأنثروبولوجيا وغيرها من الفروع وتدريب الباحثين على الملاحظة، التدوين، تقنيات المقابلة وتحليل المعطيات الميدانية، ليتمكنوا من بحث وفهم الافتراضات الثقافية (قيم، عادات، تقاليد، معتقدات ...).

ذ. التركيز على المقاربة النسبية للمادة التراثية، فلا وجود لثقافة أدنى أو أرقى، فلا نحكم على قيم الآخر انطلاقاً من قيمنا ومعاييرنا الثقافية.

ر. اعتماد وتفعيل تجربة "المختبرات البحثية للمادة التراثية" نظراً لأهمية هذه التجربة في المحافظة على المادة التراثية، تحليلها، فهمها، وجعلها مادة حية بمتناول الباحثين والدارسين والمهتمين.

ز. إعادة إحياء العمل الحرفي التراثي باعتباره قيمة إبداعية تلبي حاجات وضرورات المجتمع، في إطار من التعاون والتشارك والتشبيك بين خبرات الحرفيين، وبالاعتماد على ما توفره البيئة من مواد ووسائل. من هنا ضرورة طرح الاسئلة التالية: ماذا ننتج؟ كيف ننتج؟ لماذا ننتج؟ لأنه رغم طفرة العودة إلى الموضوع التراثي، نلاحظ أن الهدف هو الربح المادي البحت، وبتقنيات حديثة تجعل الإنتاج قريباً من التصنيع دون أي اعتبار للمضمون الرمزي والثقافي والاجتماعي لهذا الموضوع.

س. إعادة إحياء العلاقة التفاعلية مع كبار السن، نظراً لأهميتها في فهم تكون الشخصية الثقافية، فالتلفزيون كوسيط ثقافي مثلاً يجعل المشاهد مجرد متلقي دون أي علاقة تفاعل، وهذا ما يؤكد مدى أهمية فهم المادة التراثية كمقدمة لفهم الذات وضرورتها لبنائها.

بيوغرافيا مختصرة وتحليل:

ولد يوسف جرجس جبور عون[1] عام (1927) في جزين، تعلم الحرفة وهو ابن سبع أو ثماني سنين من أكبر إخوته، الذي كان قد تعلمها بدوره من والدهما. عندما شبّ نزح إلى بيروت ومارس فيها عدة مهن إلى أن افتتح دكان حلاقة في ساحة الشهداء.

في عام (1950)، عاد إلى جزين وبدأ بمساعدة أخيه البكر، قبل أن يفتح مشغله الخاص عام (1952). قام بتعليم أخيه الأصغر أصول الحرفة، وعمل معه فترة قبل أن يفتح (الأخ الأصغر) مشغله الخاص هو بدوره. الحرَفي يوسف هو رئيس تعاونية حرفيي جزين الجديد. علّم يوسف ولديه وابنته من صغرهم الحرفة، الذين اشتغلوا معه في المشغل، في الفترة التي سبقت دخولهم الجامعة لمتابعة دراساتهم الأكاديمية.

الملاحظ من سيرة الحياة التي سبقت أن تعليم الحرفة يتم تناقله من الأكبر للأصغر، إذ علم الوالد ابنه البكر، وبعد إن احترف الأسرار، أصبح بإمكانه أن يعلم الأصغر منه، وهكذا. لا

[1] رئيس جمعية الحرفيين في جزين.

يعمل كل من يتعلم هذه الحرفة فيها، إذ حاول "جوزيف" أن يمتهن مساراً مختلفاً، لكنه وجد أن هناك دوافع تحفّزه على العمل بمهنة الوالد والأجداد. فرجع إلى بلدته، وعمل مع أخيه فترة، قبل أن يفتح ورشته الخاصة. وهذا أمر لا بد من ملاحظته، حيث تفرّعت الورشة الواحدة إلى ثلاث ورش منفصلة، يبدع كلاً منها منتجات ومصنوعات حرفية تشعر عند رؤيتها ولمسها أنك تلمس ذاكرة شعبية، تحوي تاريخ كل حِرَفي عبر امتداد الزمان والمكان. يقول المثل الشعبي (بارَكَ الله بِالبِيتْ لّي بِيُطْلَعْ مِنّو بِيتْ) فكيف إذا تفرّع منه ثلاثة بيوت تمتهن صنعة تؤمن العيش الكريم لأبنائها، وتساعد بطريقتها في تخفيف نسبة البطالة، والحد من الفقر ومشكلاته.

هي هدية الملوك، هكذا يُطلِق عليها أبناؤها، وهكذا تُعرَف في محيطها، ولم تنل هذا الصيت سوى لأنها جديرة بأن تحمل وبكل فخر، ليس اسم جزين فحسب، بل اسم لبنان. هي حرفة يدوية، ولذلك تنافس منتجات المصانع، فمع الأخيرة لا تشعر سوى ببرودة المعدن بين يديك، أما مع المنتج الجزيني، فأنت تمسك بالمهارة والبراعة والفن. مع المنتج الجزيني تشعر بتاريخ بلدة، وسِيَرِ حياة الحرفيين الذين نقلوها وطوّروها، فأهدوها لنا خالصة صافية يصعب التخلي عنها. هي ليست حرفة فقط، بل هي واحد من الأبناء، ولهذا نشعر أمامها بالعظمة، ولهذا يشعر من تُهدى إليه، أنه يتبنى أغلى وأعز الأبناء.

قائمة المراجع:

1. أبو سعد، أحمد. معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1997.
2. بزي، علي. "الحرف التقليدية اللبنانية (دراسة إثنوغرافية)"، المجلة العربية للثقافة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة 18، العدد 36. 1999.
3. الحيدري، إبراهيم. إثنولوجيا الفنون التقليدية، سوريا، دار الحوار، 1984.
4. Arendt, Hannah. Condition de l’homme moderne, éditions Calmann-Lévy, 1983 .
5. Ricœur, Paul. préface de «condition de l’homme moderne», Hannah Arendt, éditions Calmann-Lévy, 1983.
6. UNESCO, L’UNESCO et la question de la diversité culturelle Bilan et stratégies, 1946-2004, Paris, UNESCO, septembre 2004.